الفابية

إذا كان الفكر الفابى قد لعب دورا فى مصر، وفى التكوين الفكرى لعدد من مثقفيها، فإن صاحب هذا الدور هو سلامة موسى بغير منازع.

والحقيقة أن سلامة موسى شخصية محيرة، فقد اجتمعت فيه صفات عديدة وتراكمت فى كتاباته كل التناقضات التى يتحتم عليها أن تتراكم فى أفكار شخص يعيش فى مجتمع متخلف ومقهور ومستعمر.. لكنه ينادى بالفابية.

وفى اعتقادى أن سلامة كان فابيا ذا طابع خاص فهو شىء يختلف عن فابيى إنجلترا رغم أنه عاش أربع سنوات فى إنجلترا كان خلالها عضوا فى «الجمعية الفابية» هناك ورغم أنه تأثر كثيرا جدا ببرنارد شو، بل لعله قد استعار منه كثيرا من تشبيهاته وأحكامه.

لكنه لم يكتف ببرنارد شو فلقد تأثر بآخرين.. نيتشه، ابن خلدون تولستوى، غاندى، أوين، أبسن.. وحتى كروبتكين تأثر به وترجم له «نداء إلى الشباب»[1].

كذلك تأثر سلامة موسى بماركس تأثرا كبيرا وإن كان قد ظل لفترة طويلة يتحاشى الإشارة إلى ذلك.. وأخيرا وبعد ثورة عام ١٩٥٢ كتب سلامة موسى يقول:

.. ومع أنى فى كتاب «هؤلاء علمونى» قد ذكرت نحو عشرين من الأدباء والعلماء والمفكرين الذين وجهوا نشاطى الذهنى وربوا نفسى فإنى لم أذكر معهم كارل ماركس داعية الاشتراكية، والآن أحب أن أعترف أنه ليس فى العالم من تأثرت به وتربيت عليه مثل كارل ماركس وإنما كنت أتفادى ذكر اسمه خشية الاتهام بالشيوعية».

وهو يعترف مرة أخرى فيقول «ولو كنت قد وجدت الحرية أيام الحكومات الملوكية السابقة لألفت عن الاشتراكية بما كان يوجه ويرشد»[٢].

وثمة قصة أخرى يرويها عنه أحد أصدقائه لعلها بالغة الدلالة فى الكشف عن شخصية سلامة موسى «فى عودته من إحدى رحلاته إلى أوروبا سنة ١٩٥٠ كان يقرأ «إنجيل ماركس» (رأس المال) فى السفينة سرا وكان لقلقه وخوفه من التجسس والمطاردة يلقى فى البحر كل ورقة يقرأها بمجرد الانتهاء منها»[٣].

وسلامة موسى هو واحد من أول دعاة الاشتراكية فقد أصدر فى ١٩١٣ كتابا بعنوان «الاشتراكية» لكنه مجرد داعية، رجل يقول كلمته ويمشى، يؤمن بالاشتراكية لكنه فابى، فالاشتراكية سوف تنتصر لا بالنضال ولا بالثورة ولا بالتنظيم الحديدى، وإنما بنشر التعليم وتحرير المرأة وتنظيم الزواج والعمل من أجل تحسين النسل وإتاحة الحرية للأفراد.

وهو يصدر كتابه هذا عام ١٩١٣ محدثا دويا كبيرا، ثم لا يلبث بعد عام واحد عندما تعلن الحماية البريطانية ويشتد الإرهاب أن يحذو حذو الآخرين فيهرب، رجال الحزب الوطنى هربوا إلى الخارج أما هو فقد كان أكثر تواضعا فقد هرب إلى عزبته فى الريف حيث قضى هناك كل سنوات الحرب منقطعا عن كل شىء.

كذلك فإن أفكار سلامة موسى قد اختلطت كثيرا بأفكار غريبة، وخصوصا فى بداية حياته ففى «مقدمة السوبر مان» (١٩١٠) ردد فى الأساس أفكار نيتشه بكل ما فيها من عنصرية وتخبط.. فهو ينصح المصريين بعدم الزواج من مصريات (حتى يحسنوا النسل) وهو يؤيد سيادة الأبيض على الزنجى ويقول إن الزنجى كان منذ مائة سنة فقط يأكل الإنسان ومن المستحيل أن تكون مشاعره كمشاعرنا مهما طلى نفسه بآداب السلوك [٤].

لكن ذلك كله لا يقلل من قدر سلامة موسى كمثقف موسوعى المعرفة آمن بالعلم وبالاشتراكية ووهب حياته كلها دفاعا عما آمن به من أفكار..

كذلك فإن فابية سلامة موسى ومسالمته للأعداء الطبيعين وإعلانه عن رفضه لفكرة الثورة.. «من الغلو أن نعتمد على الثورة الحاسمة التى تفصل بيننا وبين الماضى»[٥] كل ذلك قد أتاح له فرصة مكنته من أن يستمر فى نشر أفكاره خلال سنوات طويلة على صفحات عشرات الصحف والمجلات والكتب وخلال عديد من الجمعيات..

والآن، وبعد هذه المقدمة القصيرة، لنحاول أن نقدم عرضا سريعا لفكرة سلامة موسى عن الاشتراكية كما أوردها فى كتاباته الأولى..

لنبدأ بكتابه الأول (مقدمة السوبرمان) وقد صدر فى عام ١٩١٠.. وفى هذا الكتاب يتحدث سلامة موسى عن الاشتراكية..

«فالعلمانية نزعة أوروبية تشمل جميع الأمم المتمدنة تقريبا.. وهذه النزعة هى علة نزعات أخرى منها نزعة الاشتراكية التى انتهت فى أقصى أوروبا بالشيوعية وليس فى العالم قطر متمدن إلا وبه حركة اشتراكية قوية مصبوغة بصبغة الوسط الذى نشأت فيه.. وكل الدلائل تدل على أن العالم يتجه نحو نظام اشتراكى، إن لم يكن فى جميع صناعاته ففى نحو النصف أو الثلثين»[٦].

ويقول «ومما يساعد رقى الأمة أن نجعل ناموس تنازع البقاء يجرى بلا إجحاف بين الناس ولا يكون ذلك إلا إذا استوت أمامهم الفرص المعيشية بحيث لا يمتاز أحدهم عن الآخر إلا بكفايته الذهنية أو الجسمية، فيجب أن يتساوى الناس فى فرصة الإثراء.. وذلك باصطناع نظام اشتراكى أو شبيه بالاشتراكى حتى لا يولد واحد غنيًا وآخر فقيرًا.. وقد يكون الغنى أحط ذهنا وجسما من الفقير، ولكن امتيازه بالمال الموروث يعينه على زيادة نسله فى الأمة من حيث أن فقر ذلك يمنعه من الزواج»[٧].

لكنه مع ذلك يردد مجموعة من الأفكار الغريبة.

فهو يرى أن الإنسان السليم القوى هو الذى يستحق أن يعيش أو على الأقل هو الذى يجب أن يسمح له بأن ينجب أطفالا.

«فالرقى الذى نجده فى كفايات الحيوان إنما لأنه يقوم بقتل الضعيف أولا بأول، فلا يبقى غير الأقوى الذى ينسل نسلا على غراره حاصلا على كفايته..

والإنسان حيوان ولكنه يختلف عنه من حيث إن نسله العاجز يعيش، فالغزال الأعرج يموت والأسد البطىء يهلك جوعا فى الغابة ولكن الإنسان الأعرج يعيش بالصدقة

والإنسان البطئ يعيش أيضا بأى عمل هين.. وليس فى مقدورنا أن نعود بالإنسان إلى توحش الطبيعة فى الغابة، وإنما نعرف أنه يمكن أن نقصر الزواج على الفئات السليمة فى الأمة ونعرف أيضا أن أهم مخترعات القرن التاسع عشر وأخطرها لمستقبل الإنسان هو كما قال شو التعقيم الاختيارى»[٨].

وثمة رأى آخر:

«فالأخلاق يجب أن تكون حرة، لأن حرية الأخلاق تدعو إلى انقراض الفاسد منها وبقاء الصالح.. وليس من مصلحة الإنسان أن يعيش فى قفص من الواجبات الأخلاقية لان من طبيعة الأخلاق الفاسدة أنها تقتل صاحبها، فلنترك السكير يسكر كما يشاء لأن سكره ينتهى بموته المبكر، ولنترك النهم يشره إلى كل طعام فإن معدته تسوقه إلى قبره بأسرع مما نتصور..».

وهكذا تاهت أفكار سلامة موسى التقدمية وسط ضباب من أفكار أو مقترحات غريبة وغير معقولة.

وهناك أيضا الموقف المرتبك الذى اتخذه سلامة موسى من قضية الدين. فهو مادى داروينى.. وهو ينتقد «الأديان الراهنة لأنها تتدخل فى أمور العالم وتعرقل سير الترقى لأن الترقى يقتضى التغيير، ولا تغيير بدون بدعة جديدة.. ولكن الأديان للصفة المقدسة التى تتصف بها تقف جامدة لا تقبل تغييرا فتعمل بذلك لجمود الأمة..».

«والدين إذا خرج من دائرة علاقة الإنسان بالكون وأخذ يقرر أصول المعاملة بين الناس من تجارة وزواج وامتلاك وحكومة ونحو ذلك فإنه عندئذ يقرر الموت لكل من يؤمن به».

لكنه مع ذلك يؤكد فى إصرار «أن الدين ضرورى لكل أمة ولكل فرد.. ولا يمكن أن يعيش الإنسان بلا دين، لأنه مادام قد شرع يفكر فى الكون زمانا ومكانا فقد شرع يفكر فى الدين.. ومن ينظر إلى السماء فى ليلة صافية ويتأمل فى أبعاد النجوم والكواكب يعجب كيف يمكن لإنسان أن يجزم بهذا المذهب أو بذلك عن أصل هذا الكون ونهايته»[٩].

ويكتب سلامة موسى مقالا عن ويلز بعنوان «أديب ينشد ربه» يتحدث فيه عن دين جديد يؤمن بوجود الله لكنه إله «لا وجود له من حيث المادة أو الفضاء، لكن له وجوداً رمزيًّا كوجود التيار الفكرى وهو ينمو بنمو الإنسان وينظر بأعيننا إلى هذا الكون ويعمل بأيدينا فيه.. وكل ما لنا من حقائق وكل ما لنا من قصد أو عمل عظيم يجمعها فى نفسه.. فهو

الذاكرة الإنسانية التى لا تموت وهو الإرادة الإنسانية الدائبة فى الازدياد.. وليس للديانة الجديدة وحى وليس لها مؤسس، ومن ينشدها ينشد حقيقة لا يرشده إليها غير ما فى نفسه من القداسة»[١٠].

وأفكار كهذه، وبارتباك مثل هذا، لم يكن بإمكان أحاديث سلامة عن الاشتراكية أن تصل إلى كثير من الأذهان..

لكنه وبالرغم من كل شىء لعب دورا كبيرا فى إرساء قواعد الفكر الاشتراكى..

ففى عديد من المقالات رفع سلامة موسى لواء الاشتراكية، مستخدما حديثه العذب وسعة اطلاعه وطريقة برناردشو فى العرض.. ولنتأمل هذه الفقرات التى وردت فى مقال بعنوان «الآلات والحضارة».

«فى أوروبا الآن حركة اجتماعية تهزها من أقصاها إلى أقصاها هى حركة العمال الاشتراكية، هذه الحركة التى ستقلب الجمعية للبشرية رأسا على عقب هى ثمرة آلات الإنتاج التى اخترعت فى القرن التاسع عشر والذى اخترع هذه اللفظة التى سمى بها فى أوروبا لم يكن فيلسوفا أو كاتبا أو أديبا وإنما كان صاحب معمل.. رأى أن مبدأ الملكية كما هو متعارف عليه فى زماننا قد مضى وقته وحان تعديله أو إلغاؤه.

كان الخزاف قديما يصنع الخزف بيديه ويطليه بنفسه بمختلف الألوان ويحرقه ويبيعه وقلما كان يستخدم عاملا فإن فعل رجا هذا العامل أن يكون خزافا يوما ما وكثيرا ما كان يتحقق رجاؤه فكان المالك فى ذلك الوقت عاملا وتاجرا لا يستغله أحد..

فلما جاء القرن التاسع عشر وكثرت الآلات وعظم حجمها انقسم الناس فئتين، فئة أصحاب المعامل وفئة العمال وزال أمل العمال فى أن يكونوا أصحاب معامل وتعذر جمع المال اللازم لشراء الآلات العظيمة.. وصار أصحاب المعامل لا يشتغلون، فتغير بذلك مركز العامل الاجتماعى إذ كان قديما يطمع فى أن يكون صاحب معمل فيكون. أما الآن فلا مجال لهذا الطمع، وكان صاحب المعمل قديما لا يحصل إلا على الكفاف، أما الآن فصار يحوز الألوف بل الملايين من كد العمال وكدحهم.

فالآلة هى العلة فى الاضطرابات الاجتماعية الحاضرة وهى أصل الاشتراكية، ومن العبث والجور أن نطبق مبدأ الملكية القديم على طريقة الاستغلال الحاضرة فقد تغيرت الأحوال فينبغى أن تتغير المبادئ».

ثم يمضى سلامة موسى مهددا:

«وكما زالت سلطة الإشراف فى أواخر القرون الوسطى فكذلك ستزول سلطة أصحاب رؤوس المال فى هذا القرن.. ومن يعش يرى» (١١).

وهناك أيضا الكتيب القيم الذى أصدره سنة ١٩١٣ بعنوان (الاشتراكية) وهو كتيب صغير فى ثلاثين صفحة أشبه ما يكون بمقال متوسط الطول.. يبدأه سلامه موسى بفاتحة تقول

«يدعونى إلى كتابة هذه الرسالة الوجيزة كثرة السخافات والغباوات التى تحكى عن الاشتراكية.. فغرضى الأول منها تنوير الرأى العام عن ماهيتها مع بيان أغراض الاشتراكيين فى أوروبا وأمريكا وذكر مآثرهم فى التشريع وما وصلت إليه حالة العمال من الرفاهية بمساعيهم».

وكالعادة ينفى سلامة موسى فكرة وجود الحزب وإن كان لا يستبعد وجوده فى المستقبل.. فيقول:

«ولست طامعا أن تعد هذه الرسالة دعوة للجمهور إلى الاشتراكة ولا أن تكون سببا فى تأليف حزب أو جمعية، ولكننى أطرحها أمام الجمهور القارئ عسى أن تكون خميرة تختمر بها الأفكار إلى حين تستعد البلاد للاشتراكية»(١٢).

ويبدأ سلامة موسى دراسته بأسطر معقدة لا يمكن أن تجذب القارئ العادى إلى تكملة الكتاب فالكلمات الأولى تقول:

«لما قام لوثيروس بدعوته كانت الأفكار الأوربية قد تنبهت بعض التنبيه إلى أثر اكتشاف أمريكا وترجمة الكتب اليونانية بواسطة المهاجرين البيزنطيين الذين فروا من وجه الاتراك، وكانت الدعوة اللوثرية فى الحقيقة إحدى نتائج هذا التنبيه»(١٣).

وهكذا كان العيب فى كتاب سلامة موسى هو أنه حاول أن يشرح الاشتراكية بكلمات شديدة الغموض، ولجأ إلى انحناءة طويلة مارا بأسماء لم يسمع عنها سوى غلاة المثقفين.

ثم إن سلامة موسى يكتب متأثرا بالأفكار الفابية، بل ويكاد ينقل بعض كلمات برناردشو فى شرحه للاشتراكية.. فيسمى تملك الحكومة المصرية فى ذلك الحين للسكة الحديد بأنه عمل اشتراكى النزعة.

«وعندنا الآن من الأعمال التى تعملها حكومتنا ما هو اشتر كى النزعة مثل مصلحة السكك الحديدية الأميرية.. فإن هذه المصلحة تدار الآن لفائدة الأمة ويجمع الفائض من إيراداتها ويصرف على مرافق الأمة»(١٤).

«وعندنا أيضا بلديات كثيرة توزع المياه والضوء على سكان المدن وتنشئ المتنزهات العمومية وتؤلف الجوقات الموسيقية للذة الجمهور»[١٥].

وإذا كان الأمر كذلك..

«فإن غاية ما يطلبة الاشتراكى أن تتدرج البلد من امتلاك المياه والضوء كما هو حاصل عندنا الآن إلى امتلاك الترامات والمخابز والتياترات والمساكن والمكاتب العمومية.

ويطلب أن تتدرج حكومتنا من امتلاك السكك الحديدية إلى الأراضى والمعامل والمناجم وتديرها كما تدير هذه السكك الآن..»[١٦].

هكذا وبكل بساطة يتخيل سلامة موسى الفرق بين المجتمعين وبين الحكومتين.. حكومة ومجتمع الرأسمالية وحكومة ومجتمع العمال..

لكن النزعة الفابية تبدو واضحة غاية الوضوح فى الأسطر التالية التى يحدد فيها أسلوبه فى العمل «يطلب الاشتراكيون ذلك على سبيل التدريج الوئيد لا الطفرة السريعة؛ وكل خطوة نخطوها نحو الإصلاح الاشتراكى تكون مصحوبة دائما بل ومتوقفة على درجة التنوير السارية فى الأمة»[١٧].

وحتى عندما يتحدث عن مصر يتخذ موقفا فابيا واضحا.

فهو يتساءل كيف تكون الاشتراكية فى بلاد كمصر؟

ويجيب «تكون بتربية الجمهور على الحكم النيابى الديمقراطى أولا، ثم نشر المبادئ الاشتراكية وإدخال بعضها بالتدريج فى جسم الحكومة حتى تتشرب بها الأمة وتصبح عزيزة فيها فتتوجه فكرة الإصلاح إلى وجهات اشتراكية ثانيا.. هذا مع تقدم العلم وتنوير الأمة دائما بالمطبوعات عن مصالحها الحقيقية».

وهو يقدم صورة مغرقة فى الخيال للمجتمع الذى يريد.

«فبدلا من أن يحكم القرية عمدة ليس لأهل القرية رأى فى تعيينه، يحكمها مجلس منتخب من سكان القرية الراشدين ذكورا وإناثا.. ويعين هذا المجلس خفراء القرية وقضاتها ومهندسيها وأطبائها .. وتؤسس المدارس الزراعية العالية فلا يشتغل فى الأرض إلا من نال شهادة منها، فتزرع على أصول فن الزراعة»[١٨] .

ولنتأمل هذه الصورة ولنتخيل وقعها على فلاح يتقدم إليه الاشتراكيون ببرنامجهم قائلين: لا يزرع الأرض إلا من يحصل على شهادة من مدرسة الزراعة العليا.. أعتقد أنه ليس هناك أبعد من ذلك إغراقا فى الخيال ولا عزلة عن الواقع..

وهو يحاول أن ينفى عن الاشتراكية «تهمة» الثورية فيقول:

«ومن الاعتراضات أيضا القول بأن الاشتراكيين ثوريون ينوون الاستيلاء على الحكومة عنوة ويعملون بعد ذلك على مصادرة الأملاك ومطاردة الأغنياء. فإن هذا الكلام أولى أن ينسب إلى تخبط المعتوهين منه إلى تفكير العقلاء، وجهاد الاشتراكيين فى الانتخابات البرلمانية دليل على أنهم يدخلون البيوت من أبوابها.. ويريدون الوصول إلى أغراضهم بالوسائل الشرعية»[١٩].

وتبدو نزعته الإصلاحية الفابية واضحة عندما يسمى كل ما يحدث فى أوربا من إصلاحات كقانون الثمانى ساعات والتأمينات الاجتماعية بأنها مجهودات اشتراكية.

لكن الرجل يقدم بالرغم من كل هذه العيوب دفاعا مجيدا عن الاشتراكية ويؤكد أنها منتصرة حتما، ويصد عنها اتهامات المغرضين قائلا: ومن اتهامهم اتهام الاشتراكيين بأنهم ضد الدين ينوون إلغاءه عندما يستولون على أزمة للحكومة، وهذه فرية لا أساس لها فإن الاشتراكية تضم بين دعاتها المؤمن والمعطل، والمسيحى واليهودى على السواء، وهى قبل كل شىء نظام لا دخل له فى الدين»[٢٠].

وهو يشن هجوما ساحقا على النظام الرأسمالى موجها إليه سلسلة من الإدانات والاتهامات لا بد وأنها قد فتحت أعين الكثيرين على مساوئ النظام وضرورة تغييره.. ويبدأ سلامه موسى قرار اتهامه الشجاع قائلا: «سأذكر بعض نقائص النظام الحاضر متوخيا الاختصار والاكتفاء بإشارة عن التطويل والإيضاح.

١- إننا كلنا باستثناء صغير نشتغل أولا وآخرا لجمع المال بحيث لا يبقى هذا الشغل مجالا لعمل آخر.. إننا مدفوعون كلنا إلى التنافس والتحاسد والتكاثر بالمال على قلة قيمته الحقيقية، وهناك ما كان يجب أن يشغلنا ويملأ وقتنا كتأليف كتاب أو اختراع آلة أو تصوير صورة أو اكتشاف حقيقة خفية أو التمتع بالسياحة أو غير ذلك من الأعمال التى يكاد يكون كل الشرف الإنسانى معلقا بها.

٢- إننا انقسمنا إلى فئتين: فئة غنية تكتظ معدها بالمأكولات الدسمة والأخرى فقيرة ترمق العيش رمقًا، والفئتان تشتغلان بجمع المال حتى الغنية منهما فأصبحت لذلك تراها قذرة ببيوت الفقراء وعمالنا ضعفاء لقلة الغذاء.. وأصبح الأغنياء فى حيرة كيف يصرفون أموالهم، فمنهم من يركب متن الشهوات فيشجع الناس على البغاء وإيجاد المسكرات، ومنهم من يخزن أمواله فيضيق على الناس معاشهم.

٣- لقد أوجد نظامنا الحاضر جملة وظائف غير طبيعية وغير لازمة لجمعية بشرية منظمة مثل المحاماة والبغاء والمقامرة.. إلخ ، فإن هذه الوظائف وجدت كنتيجة للنظام الحاضر، وهى أول ما يلغى فى نظام اشتراكى، وذلك اقتصاد كبير.

٤- إن نظامنا الحاضر أضاع من النفوس شرفها ومن الضمائر حياءها، فالتاجر يكذب ويخدع ويغش مصنوعاته، حتى إنه ليسم الخبز إذا رأى فى ذلك ربحا.. ويبنى البيت وكل همه أن يؤجره بأعلى أجره دونما نظر لحالته الصحية أو الجمالية.. لأنه لغاية المال، يبرر كل واسطة.

٥- إن أكثر الجرائم الحاضرة وما تكلفنا من سجون منشؤها الفقر.. فالجوع كافر والبرد أكفر والعراء أنكى من الاثنين، وهذه تلقى الحقد فى صدور الفقراء وتدفعهم إلى الإجرام.

٦- إن جمع المال يحتاج إلى أشياء كثيرة من خراب الذمة وموت الضمير وضعف الإحساس، والذين يبزون أقرانهم فى جمعه بهذه الوسائل يبرهنون على حطة طبائعهم.. ومع ذلك فهم الذين يبيح لهم ثراؤهم إنسال النسل فى الأمة.

٧- إن الحروب الحاضرة على ما فيها من بشاعة وشناعة وتوحش وخسائر فى الناس والمال والوقت لا تنشب إلا لأجل المال.. وليس الاستعمار إلا إحدى نتائج نظامنا الحاضر مع ما فيه من الظلم والاسترقاق.

٨- أقذر وأحط ما يدفع الناس إليه نظامنا الاقتصادى الحاضر هو الزواج المالى.. فإن الشيخ الفانى يتزوج بالصبية الحسناء الفتية شاريا عرضها بالمال.. ولو لم تكن للمال قيمته الحاضرة لما اضطرت فتاة إلى قهر عواطفها والرضى بالمعيشة مع من هو فى عمر جدودها[٢١].

ولكن، وبعد هذه الإدانة الجريئة للنظام الرأسمالى تشتعل الحرب وتعلن الحماية، ويبدأ الكثير من المثقفين مسيرة الهرب.. ويلجأ سلامه موسى إلى الريف.

ومع تصاعد المقاومة الشعبية والعمالية تعود إليهم الثقة فى أنفسهم وفى أفكارهم، فيعود سلامة موسى من جديد ليخوض غمار الدعوة إلى الاشتراكية.. أكثر جرأة فى هذه المرة.. فلماذا الحذر والعمال يرفعون رايات النضال، ويخوضون بشجاعة نادرة إضرابهم العام.. ولماذا الحذر والفلاحون يحملون السلاح، ويقاومون قوات الاحتلال، ويعلنون

جمهورياتهم المستقلة ويحققون جزءا من أحلام سلامة موسى.. فيقيمون أكشاكا للموسيقى لتعزف ألحانا لم يسمعوها من قبل.

وهكذا يبدأ سلامة موسى فترة جديدة من حياته هى فترة العمل الحزبى من أجل الاشتراكية، وهى فترة وجيزة جدا، ذلك أن قصرها مرتبط بقصر الانتفاضة الثورية والمد الثورى العظيم الذى صاحبها.. فما أن يبدأ الجذر.. حتى يعود سلامه موسى أدراجه، ليكتب فى الصحف محاولا أن يستلهم من أفكاره الفابية آمالا لغد مشرق.. كتابات شخص وحيد فى بعض المجلات.

ولن نستفيض هنا فى الحديث عن «الحزب الاشتراكى المصرى» الذى شارك سلامة موسى فى تأسيسه، فلهذا الحديث فصل مستقل.. لكننا سنعرض بعضا من مواقف سلامة موسى حتى تستكمل الصورة معالها.

فسلامة موسى واحد من أربعة وقعوا النداء لتأسيس الحزب الاشتراكى المصرى، وكان توقيعه دليلا على تطور هائل فى موقفه وانعكاسا لتأثره بأحداث النضال الثورى العام التى كانت مصر تموج بها فى ذلك الحين.

والحقيقة أن سلامة موسى كان يسعى فى ذلك الحين إلى تأسيس «جمعية» اشتراكية غايتها الدرس أكثر من السياسة[٢٢] . لكن روزنتال أقنعهم بتأسيس حزب يضم جميع الاشتراكيين.. وسرعان ما تأسس هذه الحزب ليضم بين صفوفه الماركسيين واشتراكيى الدولة الثانية والفابيين.

لكن الرجعية المصرية لم تترك لهذا الحزب فرصة يتنفس فيها.. فبادرته بهجوم مركز ساهمت فيه أطراف عديدة، من بينها رجال الدين.

وهنا يعود سلامة موسى ليتحصن فى فابيته، فيكتب ردا على هذه الهجمات المركزة يقول فيه[٢٣]:

«ربما كان الوقت أسوأ الأوقات لتأليف هذه الجمعية لاعتبارين:

أولهما: أن البولشفية الروسية قد أخفقت إخفاقا يكاد يكون تاما ونشرت على ربوع البلاد الروسية ألوية الخراب والدمار.

وثانيهما: أننا فى مأزق سياسى لا ينبغى أن نزيده حراجة بما يكفى أن يتزرع به المعارضون لاستقلالنا فى إنجلترا من أن فى مصر شيوعيين وبولشفيين، وهذه ألفاظ تستطير لب ساسة الإنجليز.

وقد بحث مزمعو تأليف هذه الجمعية هذين الاعتبارين، وقر رأيهم على أن التخوف من أن إقامتها قد يكون عائقا فى سبيل المفاوضات الحاضرة، أو فى نشر المبادئ الاشتراكية المعتدلة، لا محل له.. وذلك لأن البولشفية قد صرح كثير من الاشتراكيين بعدم موافقتهم عليها، لأنها لجأت إلى تحقيق غايتها طفرة وغالت فى تطبيقها.. والاشتراكية ينبغى أن تكون بطبيعتها وبالوسائل التى تتزرع إليها والتدابير التى تتخذها فكرة نشوء وتطور، بحيث لا يمنح منها للأمة شيء إلا بمقدار ما حصلت عليه من التربية.. فيشرب أفراد الأمة مبادئ الإيثار والغيرة على المصلحة العامة.. أما من جهة المفاوضات فإن أكثر أعضاء الجمعية المزمع تأليفها يحسنون اللغات الأوروبية المهمة ويجيدون كتابتها، ولن يقصروا عندما يرفع الاستعمارى عقيرته ويندد بها فى الرد عليه وإفحامه.

وبديهى أن الغاية القصوى من الاشتراكية هى إلغاء الملك الفردى واستبداله بالملك العمومى، ولكن دون هذه الغاية مراحل ينبغى أن تقطع وهذه المراحل هى فى الواقع غايات صغرى أهمها: نشر التعليم بين عمال الأمة حتى يدخلوا فى دور الوعى الاقتصادى ويتكاتفوا على العمل لمصلحتهم، ثم تسعى الجمعية بواسطة النشر فى إقناع أولى الأمر أيا كانوا لكى يقننوا القوانين اللازمة لتحسين مساكن العمال وزيادة أجورهم من الأصلحات.. ونحن على علم تام بأن علاقة الأجير الزراعى مع الممول المصرى هى علاقة إنسانية أكثر منها اقتصادية، بل هى بعيدة عن تلك العلاقة الجامدة التى تربط، الممول الأجنبى بالعامل الذى يشتغل فى معمله.. والمالك المصرى فى الواقع ينبغى أن تكون له مكانة الموظف العمومى من حيث المسئولية الأدبية والقانونية، لأن سعادة العائلات المصرية الفقيرة وشقاءها متوقفان على كيفية نظرته لطرق الاستغلال.. استغلال الأرض واستغلال العامل.

فلهذا السبب لن تقف الجمعية موقف العداء ضد الملاك المصريين.. وإنما هى صديق يدلهم على مصلحتهم، كما يدل العمال على مصلحتهم أيضا، لأن مصلحة الاثنين واحدة.

والكلمات واضحة الدلالة.. ولا تحتاج إلى تعليق.. ولكننى فقط أريد أن ألفت النظر إلى أن سلامة موسى ظل حتى بعد إعلان الحزب يستخدم كلمة «جمعية».

وبعد أيام يعود سلامة موسى ليعلن بأعلى صوته «نحن فابيون».. فيقول فى مقال نشره فى الأهرام ردا على هجوم شنته جريدة «الأحبشيان جازيت»: إن حملتكم على الحزب

الاشتراكى المصرى لا مبرر لها، فإننا لم نؤلف حزبا جديدا وإنما انضممنا إلى الحزب الاشتراكى الذى عاش ونما منذ مدة بعيدة فى الإسكندرية وكان أول ما فعلناه فى القاهرة أننا أنكرنا البولشفية بكل صراحة وجحدنا مبادئها بلا قيد ولا شرط.. وقد كنت أنا نفسى عضوا فى الجمعية الفابية الإنجليزية، وهى جمعية الاشتراكيين المعتدلين فى لندن، وغايتنا ووسائلنا هى غايات هذه الجمعية ووسائلها.

وقصدنا الحاضر أن نجمع المعلومات المفيدة عن النظام الاقتصادى الحاضر، وسنأتم بالدعاة الإنجليز أمثال «شو» و«ويلز» ونعنى بهم أكثر مما نأتم بماركس وإنجلز، وسكيون شعارنا التطور والنشوء لا الثورة والانقلاب.. وسنبدأ عملنا متواضعين بالسعى فى إيجاد القوانين من معاشات للشيخوخة ومساكن العمال وتعليم للأطفال، وأمثال ذلك، وسنسترشد فى كل ذلك بالقوانين الإنجليزية».

وهكذا.. ومع كل هجوم من جانب الرجعية.. كان سلامة موسى يتخذ خطوة إلى الخلف، متراجعا عن المبادئ التى وقع عليها بنفسه فى بيان تأسيس الحزب الاشتراكى..

وكان طبيعيا بعد ذلك كله أن يكون سلامة موسى من بين هؤلاء الذين آثروا السلامة، وانسحبوا من الحزب منذ البداية.. معلنين رفضهم الانتماء للدولية الثالثة.

لكن البعض ينسحب من الحزب ومن العمل العام أيضا، بينما يبقى سلامة موسى فى الميدان محاولا أن يؤدى رسالته على الوجه الذى يراه هو ملائما..

وإذا حاولنا أن نتتبع سلامة بعد الانسحاب من الحزب فسوف نجد أنفسنا أمام سلامة موسى القديم، الفابى كما كان قبلا، الذى يدعو إلى الدارونية والالتزام بالعلم ويهاجم الخرافة ويدعو لحرية المرأة وإلى التصنيع، معتقدا أنه يمكنه بذلك أن يهيئ الأذهان للاشتراكية.

ولقد كان سلامة موسى فابيا حقا، فاختار طريقا طويلا جدا.. مؤملا أن يصل إلى غايته..

وهو على أية حال يوضح حقيقة منهجه فى هذه الفترة فى كلمات ذكرها عرضا حول الجمعية الفابية فى مقال بعنوان «اللورد الاشتراكى وزوجته الديمقراطية» فيقول[٢٤]:

«وتألفت «الجمعية الفابية» لنشر الاشتراكية فى إنجلترا عن طريق التسرب والانسلال، فقد رأت طائفة من رجال الأدب والاجتماع أن ينشروا الأفكار الاشتراكية بين جمهور إنجلترا دون أن يحتاجوا إلى مصادمة وجها لوجه بآراء غريبة تفارق المألوف مفارقة

كبيرة.. فيكون من نتائج هذه المصادمة الصدود بدلا من القبول والفشل بدلا من النجاح.. فعمدوا إلى تأليف هذه الجمعية واشتقوا اسمها من «فابيوس» القائد الرومانى الذى حارب هانيبال القرطجنى وأضعفه بمناوشات جانبية بدون أن يصدمه وجها لوجه.. واتخذت الجمعية هذه الطريقة، فكان أعضاؤها يكتبون المقالات ويؤلفون الرسائل ويخالفون الأحرار.. فينشرون الاشتراكية من حيث لا يشعر أحد بالخطر المختبئ حتى استطاعوا أن يستولوا على الحكومة وتباع فى القاهرة مجلة يحررها أعضاء من هذه الجمعية لا يمكن للقارئ أن يحس بأنها تعمل لنشر الاشتراكية إلا بعد أن يوالى قراءتها لبضعة أعداد، وهذه المجلة هى «ذى نيوستيتسمان» وهى أدبية علمية تشتم الشيوعيين وكانت مدة الحرب تشتم الألمان وهى الآن أجرأ على الدعوة الاشتراكية مما كانت قبلا».

هذه هى بالضبط خطة سلامة موسى ومنهجه فى العمل، وكأنه قد حاول فى هذه الأسطر القليلة أن يلخص خطته وآراءه تلخيصا واعيا..

مرة أخرى سنحاول أن نلقى مزيدا من الضوء على أفكار سلامة موسى لنعرف بالتحديد ماذا كان يعنى بألفاظ مثل الاشتراكية والشيوعية والبولشفية..

وفى أحد أعداد المجلة الجديدة ثمة سؤال من القارئ ع.ح. من الإسكندرية يسأل ما الفرق بين هذه الألفاظ: الاشتراكية. الفابية. البولشفية. والشيوعية؟[٢٥].

والجواب الذى قدمه سلامة موسى هو:

«الاشتراكية هى التدرج بالطرق البرلمانية القانونية إلى جعل العقارات المغلة التى تحتاج لاستغلالها إلى استخدام عمال كالأرض والمصانع والمناجم ملكا للأمة.. فالبريد والسكك الحديدية والتعليم والمستشفيات هى فى مصر إلى حد كبير جدا اشتراكية، لأن الحكومة تقوم بها دون الأفراد.. ولسنا نحب أن تكون هذه الأشياء فى أيدى الأفراد دون الحكومة.

أما الشيوعية والبولشفية فكلتاهما مسمى لشىء واحد، وهى تشبه الاشتراكية فى النتيجة ولكنها تختلف فى الوسيلة، لأنها تعمد إلى الثورة والانقضاض كما حدث فى روسيا.. بينما الاشتراكيون يطلبون التدرج عن طريق السبل القانونية، ولذلك فهى تمثل استبداد العمال بالمالكين.

أما الفاشية فهى نقيض الشيوعية، وهى تمثل استبداد المالكين بالعمال.. وكل منهما، أى الفاشية (كما فى إيطاليا) والشيوعية (كما فى روسيا) لا يبدأ بالقوانين وإنما يحقق أغراضه اغتصابا وقهرا.. وفى ذلك من الضرر بالناس ما فيه».

ولقد انسحب ممثل الفابية الأول من الحزب الاشتراكى.. ليعمل رئيسا لتحرير مجلة «كل شىء» التى كانت تصدر عن دار الهلال.

وفى مجلة «كل شىء» يكتفى سلامة موسى بالحديث عن العلم والتعليم وتحرير المرأة.

وفى بعض الأحيان يهاجم البلاشفة تحت عنوان «المظلومين يظلمون»..

«ليس ينكر أحد أن حكومة القيصر كانت ظالمة.. ولكن هل من ينكر الآن أن الحكومة الشيوعية ظالمة أيضا.. لقد حكمت إحدى محاكم البولشفيين أن كتب تولستوى يجب مصادرتها وإحراقها، وهذا مع العلم بأن تولستوى كان ينصر العمال فى كل ما يكتب ويجهر بمظالمهم.. ولكنه لم يكن يدرى أن المظلوم يعود ظالما»[٢٦].

وفى عدد آخر يؤكد أن إليهود يحكمون روسيا، وأن ٩٥ بالمائة من أعضاء السوفيتات يهود[٢٧].

وفى نفس العدد من «كل شىء» خبر طويل بعنوان «الجريمة فى بلاد السوفيت».

وفى بعض الأحيان كان سلامة موسى يفقد كثيرا من حذره.. فتراه مثلا يمتدح فورد قائلا:

«إنه يعنى بالعمال فيبنى لهم البيوت ويؤسس لهم المطاعم، حتى الملاهى فقد عنى بها.. هذا إلى زيادة الأجور زيادة فاحشة»[٢٨].

بل هو يفقد حذره إزاء هتلر.. فيكتب فى مقال بعنوان «الوطنية العاملة»:

«وفى أوروبا أخذت الوطنية الجديدة أشكالا مختلفة، ففى ألمانيا حركة وطنية ولكنها فى الوقت نفسه حركة اشتراكية يقودها الزعيم هتلر»[٢٩].

لكنه بالرغم من هذه الأخطاء كان يتخذ فى الأساس موقفا مخلصا وصادقا..

فهو يدعو للديمقراطية والحرية.. ويكتب افتتاحية بعنوان «ركنا الحضارة.. العلم والديمقراطية»[٣٠] معلنا «أن الديمقراطية هى الركن الثانى الذى تقوم عليه هذه الحضارة».

ثم يقدم تفسيره لكلمة الديمقراطية قائلا: «إن فكرتها الأساسية هى التسوية بين البشر فى الحقوق والواجبات، وإلغاء الأثرة التى نالها فريق من جراء احتياز الأموال وتوارثها جيلا بعد جيل، حتى يتسنى لكل فرد أن ينال ثمرة تعبة الحقة.. فلا يكون امتيازا إلا لأقدر الناس على خدمة الناس.. وقد نفذت هذه الفكرة نفوذا سريعا فى البشر، وكان من نتيجة انتشارها أن اتجه التقدم الاجتماعى ثلاث وجهات رئيسة:

١- وجهة إلغاء الفوارق بين الطبقات الاجتماعية.

٢- وجهة إلغاء امتيازات الرجل على المرأة.

٣- وجهة إلغاء استغلال الشعوب القوية للشعوب الضعيفة.

ولا شك أن كلمات كهذه كانت عظيمة الأثر، جمة الفائدة.

بل هو ينتهز الفرصة فى بعض الأحيان ليمتدح على استحياء بعض مواقف البلاشفة.. ففى افتتاحية عدد آخر من كل شىء يقول[٣١]:

«إن البلشفيين - بين سيئاتهم الكثيرة - حسنة واحدة يحق لهم أن يفتخروا بها، وهى أنهم أدركوا شأن المعلم فى المجتمع.. فجعلوا له المكانة الأولى فى نظامهم.

فقد طالعنا أنهم قسموا المهن إلى بضعة أقسام باعتبار فائدتها للمجموع، فجعلوا فى مرتبة واحدة - وهى المرتبة الأولى - المعلمين والوزراء وساووا بينهم من حيث الأجر والمكافأة».

وعلى صفحات نفس المجلة - وفى أعداد لاحقة - كتب دفاعا عن الفلاح بعنوان «أبونا الفلاح»[٣٢] يطالب فيه بتحديد القيمة الإيجارية للأرض الزراعية.

وفى كلمات تلتهب حماسا يدعو سلامة موسى إلى مقاطعة البضائع الأجنبية فيقول:

«إننا فى حاجة إلى أخلاق مصرية جديدة تكون لها قوة الإيمان الدينى فى النفوس.. فلا نذوق كسرة خبز نعرف أنها خلطت بدقيق أجنبى ولا نأذن بدخول شىء من الطعام الأجنبى فى منازلنا، فلا لحم ولا جبن ولا فواكه أجنبية تمسها اليد المصرية.. بهذا وحده نحقق لبلادنا كرامة اقتصادية تزيدنا ثروة وقوة..»[٣٣].

ولقد واصل سلامة موسى مسيرة طويلة ومجيدة حقا..

فحدث قراءه كثيرا عن غاندى، ودعا كل فلاح إلى أن يكون له مغزله الخشبى ليصنع ملابسه.. وأسس فى المدينة جمعية «المصرى للمصرى».. ودعا إلى التصنيع وإلى التعليم وإلى أشياء كثيرة جدا.

ولقد مضت على الأمة المصرية فترات عصيبة ومظلمة، كان صوت سلامة موسى هو الوحيد الذى ارتفع فيها.. منددا بالظلم مدافعا عن الحق والعدل والديمقراطية.. أحيانا فى جرأة.. وأحيانا فى مناورة.. يدعو إلى ما يظن أنه اشتراكى.. لكنه فى واقع الأمر مجرد خيالات فابية لا يمكنها أن تتحقق بغير نضال حزبى جاد..

لكن صوت سلامة موسى كان بغير شك صوتا شريفا وإنسانيا ومخلصا.. كما إنه - وبغير شك أيضا - قد أثر تأثيرا بالغا فى دائرة واسعة من المثقفين المصريين.

ولهذا فإن الحديث عن سلامة موسى لن ينتهى بهذه الصفحات، ذلك أننا سنتحدث عنه كثيرا فى صفحات قادمة.. فهو جزء أساسى من تاريخ النضال المصرى الذى امتد بعد هذه الفترة.

يبقى بعد ذلك سؤال هام: لماذا عجزت الفابية عن أن تجد لها أنصارا فى مصر بالرغم من المحاولات الدؤوبة والمتفانية لمثقف مرموق كسلامة موسى؟

والإجابة على هذا السؤال ليست سهلة فهى بحاجة إلى تحليل عميق لطبيعة المجتمع المصرى الذى حاول سلامة موسى أن يزرع فيه الفكر الفابى.

ولطبيعة موقف الجماهير المصرية والمثقفين المصريين اليساريين من هذا المجتمع.

إن أساس الفابية يقوم على فكرة إصلاح النظام القائم والسير بعملية إدارة الحكومة لبعض المنشآت (السكة الحديد والبريد والبرق) بحيث تمتد لتشمل قطاعات أوسع فى مجال الإنتاج..

لكن المصريين كانوا قد حددوا موقفا صارما من النظام ككل، والنظام نفسه كان فاسدا بحيث لا يمكن مجرد بث الأمل فى إصلاحه، وإدارة الحكومة للمشاريع التى تمتلكها لم تقدم صورة قادرة على جذب أى اهتمام بها.

وباختصار لقد حاول سلامة موسى أن يزرع أحلامه عن الإصلاح التدريجى للنظام فى أرض كانت ترفض النظام برمته..

ولقد بذل سلامة موسى كثيرا من الجهد المباشر بالاتصال بعشرات الشبان والمجموعات، وغير المباشر بما كتبه من مئات المقالات وعشرات الكتب مستهدفا إقناع قرائه، وأصدقائه بفساد النظام القائم وضرورة إصلاحه وتطويره لكن الكثيرين ممن تأثروا بسلامة موسى تأثرا مباشرا أو تتلمذوا على كتاباته اكتفوا بالشق الأول من تعاليمه فاقتنعوا بفساد النظام القائم لكنهم ساروا فى ركب المطالبين بالإطاحة به، وإقامة مجتمع اشتراكى حقيقى بدلا منه..

وليس هنا مجال ترديد الأسماء فهى عديدة.. أسماء هؤلاء الشبان الذين التفوا حول سلامة موسى فى الثلاثينيات سواء فى جمعية المصرى للمصرى أو فى جمعية الشبان

المسيحية، وكونوا معه حلقات للدراسة وندوات مستمرة ربما وصلت فى بعض الأحيان إلى حد إيجاد شكل شبه تنظيمى.. لكن هؤلاء جميعا ما لبثوا أن انفلتوا من يدى سلامة لينضموا إلى المنظات الماركسية..

والغريب فى الأمر أن سلامة موسى لم يكن يعارض هذه الخطوات من جانب تلاميذه.. بل إنه لم يخف ارتياحه تجاه المنظمات الشيوعية التى نشأت فى الأربعينيات..

ذلك أن سلامة موسى كان فابيا من نوع خاص.. وربما كانت فابيته مسألة متعلقة بقدراته الشخصية على مواجهة النظام وتحديه..

الهوامش

(١) محمود الشرقاوى- المرجع السابق- ص١٢٢.
(٢) تربية سلامة موسى- ص٢٩٠.
(٣) هو الأستاذ محمود الشرقاوى. ويرويها فى كتابه سلامة موسى المفكر والانسان- ص٤٤٠.
(٤) المرجع السابق- ص١٠٥.
(٥) مقدمة المجلة الجديدة- ديسمبر ١٩٢٩.
(٦) سلامة موسى- مقدمة السبرمان- الطبعة الثالثة سنة ١٩٦٢- ص.
(٧) المرجع السابق- ص٩.
(٨) المرجع السابق -ص٢٧.
(٩) المرجع السابق- ص٣١.
(١٠) مختارات سلامة موسى- منشورات مكتبة المعارف (بيروت) الطبعة الثانية- ص٢٢.
(١١) المرجع السابق- ص٨٠.
(١٢) سلامة موسى- الاشتراكية- الطبعة الثانية- ص٥.
(١٣) المرجع السابق- ص٧
(١٤) المرجع السابق- ص٢١.
(١٥) المرجع السابق- ص٢٢.
(١٦)المرجع السابق- ص٢٢.
(١٧) المرجع السابق- ص٢٢.
(١٨) ص٣٠
(١٩) ص٢٨.
(٢٠) ص٢٨.
(٢١) المرجع السابق- صحفة ١٥ وما بعدها.
(٢٢) الأهرام- ١٩٢١/٨/١٨.
(٢٣) رؤوف عباس- المرجع السابق- ص٢٣٦.
(٢٤) المجلة الجديدة عدد مايو ١٩٣٠ ص٨٦٧.
(٢٥) المجلة الجديدة ١٩٣٠/٨/١ ص١٢٨٧.
(٢٦) كل شىء ١٩٢٦/١/٤.
(٢٧) المرجع السابق ١٩٢٦/٢/١.
(٢٨) جيوبنا وجيوب الآجانب ص٥٦.
(٢٩) المرجع السابق - ص١٠.
(٣٠) كل شىء - ١٩٢٦/١/٤.
(٣١) ١٩٢٦/١/١٨.
(٣٢) ١٩٢٧/٨/٢٩.
(٣٣) سلامة موسى - جيوبنا وجيوب الأجانب ص٥٤.